الجامعة العثمانية

الدين والوطن — الآداب والاخلاق

مجلة سياسية ادبية علمية تهذيبية

« يكون الرجال كما يريد النساء فاذا اردتم ان يكونوا عظماء وفضلاء فعلموا النساء ما هي العظمة والفضيلة » « جان جاك روسو »

« ليست وظيفة المدرسة مقصورة على تعليم العلوم فقط فان بث الفضيلة والاقدام من اخص وظائف المدرسة » « جول سيمون »

الاسكندرية في اول ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٩ — الموافق ٢٠ ذو القعدة سنة ١٣١٦

باب المقالات

الامبراطور غيليوم
(والجامعة العثمانية)
(والاسلامية)

روت بعض الجرائد السورية حين زيارة الامبراطور غليوم لدمشق الشام ان الامبراطور غداة المأدبة التي اقامها مجلسها البلدي لجلالته قد قال لفاضل مسيحي خطب في تلك المأدبة « ان خطابك بقي الليل كله يرنّ في اذني » ولما نقلت الجرائد المصرية عن رصيفاتها السورية هذه العبارة الامبراطورية « ان خطابك بقي الليل كله يرنّ في اذني » اكبر العقلاء هذا الكلام واستغربوا صدوره عن امبراطور عظيم كغليوم الثاني الخطيب المصقع الذي اشتهر ببلاغته بين ملوك العالم وخطبائه . لكن اذا صحت الاقوال التي ترويها الآن جرائد برلين عن الشعور السياسي الذي وجده الامبراطور حين سياحته في الشرق وبالخصوص عند زيارته لبيروت ولدمشق الشام لم يبق محل لذلك الاستغراب ورجح ان الامبراطور قد قال تلك العبارة وانه اراد بها امراً سياسيا وتحرير الخبر كما ترويه تلك الجرائد ان الامبراطور كان في اثناء سياحته يراقب مراقبة شديدة ما بين العنصر المسلم والعنصر المسيحي في بلاد الدولة من العلائق والصلات الاجتماعية والودية . والذي حبب اليه هذه المراقبة وزاده رغبة فيها ما كان يقرؤه قبل سفره الى الشرق في الجرائد الاوروبية عن تنافر المسلمين والمسيحيين فيه فلم يألُ جهداً في هذه المراقبة والملاحظة ما استطاع الى ذلك سبيلا رغبة في الوقوف على غث تلك الاقوال من سمينها ومعرفة صحيحها من فاسدها

على ان الامبراطور ما نهض عن مأدبة دمشق الشام التي القيت فيها تلك الخطب التي كُتبت في اجمل صفحة من صفحات تاريخ الدولة العثمانية حتى اصبح ذا رأي ثابت في الامر الذي تكلف مراقبته مراقبة شديدة كما قدّمنا . فانه ابصر حوله في تلك المأدبة رعية الدولة العثمانية بعنصريها المسلم والمسيحي كتفاً الى كتف ورأى خطيباً مسيحياً ينتصب لدى جلالته بجرأة عربية ويلقي على مسامعه ومسامع اخوانه المسلمين الحاضرين تلك المأدبة كلاماً كانت تتهلل له وجوههم فعرف الامبراطور اذ ذاك من نظره في وجه الخطيب ورؤيته اندفاعه وحدة نفسه وقوة نظره ان هذه

القوة والحدة وذلك الاندفاع لا تنشأ في جسم ضُربت عليه المذلة والمسكنة فقال لوزير خارجيته بعد خروجه من هذه المأدبة « ان المسيحيين في بلاد الدولة احسن حالاً من الايرلنديين في انكلترا . والمسلمين في الهند وروسيا . واليهود في الجزائر . واكثر ميلاً الى مسالمة اخوانهم المسلمين والمسلمون اكثر رغبة في مسالمتهم مما يصفهم به الواصفون »

وقد افتكر جلالته غير مرة في هذا الموضوع في تلك الليلة حتى اذا اصبح الصباح ووقع بصره على الخطيب الذي اثار فيه تلك الافكار قال له باسماً « ان خطابك بقي الليل كله يرنُّ في اذني » هذا هو السبب الذي حدا بالامبراطور أن يقول هذه العبارة اذا صح انه قالها .

ومهما يكن من الامر فان الامبراطور غليوم قد خرج من ارض الدولة وهو مقتنع بان سعادة الامة العثمانية وراحتها في شد اواخي الاتفاق والوداد بين عنصريها المسلم والمسيحي لتذهب بذلك حجة اوروبا في المداخلة بشؤون الدولة من حين الى حين وتنصرف هذه القوى المبذولة في الحذر والاتقاء الى ما فيه الخير العام والمنفعة العامة للعثمانيين جميعاً . هذا فيما يتعلق بداخلية الدولة . على انه شعر في دمشق بامر متعلق بخارجيتها وقال قولاً هنالك متعلقاً بهذا الأمر سيبقى خالداً في تاريخ الدولة العثمانية

فقد أبصر جلالته في عاصمة الامويين تسابق السادة المسلمين من حوله الى اكرام ضيف مجلالة الخليفة الاعظم ونظر تهافتهم على تعظيم هذا الضيف تهافتاً اراه مبلغ ما في نفوسهم من التعلق بعرش الخلافة العظمى وسرح طرفه في ملايين المسلمين المنتشرين في اقاصي البلدان البعيدة والقريبة في الشرق والغرب وتأمل ما بينهم وبين الاستانة من الروابط الدينية والصلات المعنوية القوية فادرك حينئذ ان الدولة في قبضتها من القوة المعنوية والفعلية ما لا يكاد يكون في قبضة دولة اخرى اوروبية وغير اوروبية . وكان الامبراطور قد وقف على اكثر ما كتبه كتاب الانكليز والفرنسويين والروسيين عما يسمونه «خطر الجامعة الاسلامية» ويعنون به تألف المسلمين في العالم واجتماع كلمتهم على ما يريدونه من الخير لانفسهم فرأى بازاء ما وجده في دمشق من الحمية والحماسة ان اولئك الكتاب اصابوا في تخوفهم تلك الجامعة التي تكون سداً قوياً دون اغراض دولهم كما ان الدولة العثمانية قد اصابت ايضاً في اتخاذها الخلافة رداءً لها تعضدها وتشد ازرها في ايام ضيقها . ولما كان الامبراطور غليوم رجلا شديد الانتهاز للفرص وملكا خبيرا بفن الثارة نفوس الامم واستمالتها اليه رأى ان مأدبة دمشق الشام خير فرصة تغتنم لاظهار ما في نفسه للدولة واكتساب ميل رعيتها وغير رعيتها من المسلمين فالقى في تلك المادبة خطبته الشهيرة التي جاء فيها قوله « ان الثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين في جميع اقطار العالم والذين يربطهم رباط الخلافة باخي السلطان عبد الحميد الى الابد لم ان يثقوا بي ويعتمدوا عليَّ »

على ان كثيرين من الذين سمعوا هذا الكلام في حينه ظنوهُ من باب التجمل والتلطف وفاتهم معناه السياسي الحقيقي . واذا اردت ان تعرف مبلغ ما كان لهذا الكلام من التاثير فاقرأ الجرائد الاوروبية التي صدرت في الاسبوع الذي القيت فيه هذه الخطبة . فانها جميعها ادركت ان الامبراطور اراد بذلك ان يحذّر اوروبا ويخيم الجامعة الاسلامية او العصبية الاسلامية كما يسميها الافرنج بخيمه الامبراطوري لانهُ يرى لكل امة ودولة الحق في ان تدفع عن نفسها الشر وتدرأ الاذى بكل الوسائل التي في يدها وان تتمتع بنعمة الاستقلال وتعيش حرة مطلقة تحت قبة السماء

وقد وضع الامبراطور غليوم ختمه على الجامعة العثمانية كما وضعه على الجامعة الاسلامية . الاولى لسلامة الدولة في الداخل والثانية لسلامتها في الخارج . الاولى تجعلها جسما واحدا يحس بألم كل عضو من اعضائه . والثانية تقذف المهابة والسطوة في قلوب خصومها وتبعث كل عدو على الافتكار ملياً قبل الاقدام على شر يريده بها .

ولا ريب في ان الامبراطور غليوم قد استفاد بذلك وافاد معاً . استفاد لانه استمال اليه والى دولته مسلمي اكرة الارضية كلها فاصبحوا يشكرون له عدله وانصافه بقدر ما يذمون باقي الدول لظلمها واعتدائها وليس قليلا صداقة ثلاثمائة مليون من المسلمين . وافاد لان « الجامعة الاسلامية » بانضمام الامبراطور غليوم اليها قد زال عنها ما كان يصمها به خصومها . فان الذين يرهبون هذه الجامعة ويذمونها لانهم يرهبونها يقولون انها ناشئة عن تعصب الدين الاسلامي على الدين المسيحي . ولكن الامبراطور غليوم الملك المسيحي الشديد التمسك

بمذهبه كما تدل على ذلك جميع اقواله واعماله قد أرى اوروبا بانضمامه الى هذه الجامعة انها ليست ناشئة عن التعصب والرغبة في العدوان ولكن عن حب وقاية النفس والدفاع عن الاوطان . فهي كالاوقيانوس العظيم اذا لم تثر امواجه زوابعُ الاطماع السياسية بقي مسالماً هادئاً ساكناً واذا عصفت به تلك الزوابع لم يأمن راكبه ان تبتلعه امواجه الهائلة .

هذا وعندنا ان من يكتب في المستقبل تاريخ الدولة العثمانية كتابة منزهة عن الاغراض السياسية والمصالح الخصوصية سيقول في تاريخه ولا شك ان المانيا كانت بازاء دولتنا العلية اقرب الدول لاوروبية الى العدالة والانصاف فانها انحازت اليها في اصعب المواقف السياسية على حين ان اوروبا كلها اتحدت عليها . ولا ينقص من فضل انحياز المانيا هذا انها تتوقع من ورائه فائدة تجارية او صناعية او سياسية فان رجاء الفائدة لا ينفي فضل المساعدة وقد اصبح النفع المتبادل في السياسة الدولية خطة مألوفة . فاذا كان الامبراطور غليوم صديقنا العظيم قد ساءه قيام اوروبا عليه قومة واحدة لسلوكه جادة العدل والانصاف في الانحياز الى الدولة العلية ضد خصومها الكثيرين — اذا كان صديقنا قد ساءه ذلك فحسبه جزاءه على عدله شكر العثمانيين له في الحاضر وفي المستقبل وقول التاريخ عنه في القرون الآتية — « لقد حكم المانيا في اواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين ملك شاب كرهت نفسه الكبيرة العادلة ان تكون في جملة النسور الطامعة التي كانت تحوم بشراهة وجشع على بلاد الدولة العثمانية »

الانسان الطبيعي قبل الاجتماع — لاهم له غير دفع الحيوانات المفترسة عنه وطلب قوته البسيط وقوت امرأته التي الى جانبه . اما وطنه فالطبيعة الواسعة كما ترى بما فيها من الجبال والسهول والاحراش والاغار .

(انظر الصفحة التالية)

الانسان

وما صنع التمدن به

سل ساكني القصور ، وشاربي الخمور ، ولابسي الاستبرق والديباج ، وآكلي لحوم الضأن والدجاج ، يغدون في اواخر الليل بعد حفلات الانس والرقص فيجدون الفراش لبناً مثلياً ، فينامون فيه نوماً هنيئاً ، وينهضون بعد شروق الشمس بساعات ، الى اغتنام المسرات والملذات .

سل ساحبات ذيول التيه والفخار ، بما اوتين من بهاء يخجل بهاء الاقمار ، وهذّات اصوات اوقع في النفوس من نغمات الاوتار وغناء الاطيار ، من كل من خطوات النسيم تجرح خديها ولمس الحرير يدمي منها البنان والاظفار .

سلهم جميعاً أعرفوا من في هذا الرسم الموضوع فوق هذه السطور ؟ . على انهم اذا عرفوهُ فانما يعرفونهُ بالظن والتخمين لا بالادراك واليقين . فقد انقضت عليهم مئات قرون وهم مفارقون هذه الحالة التي نراهُ فيها فنفضوا عنهم في خلال هذه القرون الطوال كل ما كان عليهم من الآثار الفطرية واقاموا بينهم وبين الطبيعة سدوداً قوية حوّلت احوالهم وقلبت قلوبهم وابعدتهم عن فطرتهم الاصلية بعداً قصياً حتى اصبحوا اذا ابصروا الانسان الطبيعي ظنوهُ وحشاً لا انساناً طبيعياً .

في هذا الرسم الذي اشرنا اليه رجل على الفطرة الاصلية جسمه مكسو بالشعر الطويل عارٍ عن كل لباس الا غطاء من جلد الحيوان موضوع على منكبيه ، والى جانبه امرأته جالسة على الارض وهي تنظر الى حيث ينظر رجلها كانهما يتوقعان امراً .

انظري ايتها السيدة المتمدنة الى اختك بنت حواء هذه الجالسة بازاء رجلها في اعالي الجبال ، اترين في اذنيها اقراطك الماسية ، وفي معصميها اساورك الذهبية ، وعلى رأسها قبعتك الاطلسية ، وفي خصرها مشدك الذي يشد روحك اللطيفة في جسمك النحيف ، وفي قدميها نعليك الضيقتين العاليتين ، وعلى جسمها ثوبك الحريري القصير من هنا الطويل من هناك الواسع من هذه الجهة الضيق من ذلك الجانب الطويل الذيل الذي يغني البلدية عن الكنّاسين ... لا لان اختك هذه المسكينة لا تملك شيئاً من خزعبلات المدنية وادواتها ، فانها على الفطرة الطبيعية فراشها الارض وغطاؤها السماء وقاعتها كهف في اعالي الجبال او مغارة في بطن الغاب وزينتها جلد حيوان يكسو جسمها او بعضهُ كما يصنع رجلها وقوتها اثمار الاحراش واذا لم تجدها فلحم الحيوان الذي تصطادهُ بنفسها او يصطادهُ لها رجلها .

وانت ايها الرجل المتمدن أنظرت على راس اخيك الانسان الطبيعي طربوشك او نبعتك ، وحول عنقه قميصك المكوية الناصعة البياض وفيها ربطتها الحريرية اللطيفة ، وفي قدميه نعليك اللتين توسع ماسحها سبباً اذا لم تخرجا من بديع لامعتين كما تريد ... وهل رأيتهُ يستر جسمه بهذه الملابس الثخينة التي تستر بها جسمك ويأكل على بساط الطبيعة مائدته الطبيعية الالوان المختلفة التي تأكلها على مائدتك ، انت لا يكفيك لون واحد من الطعام ونوع واحد من الشراب ، وهو راضٍ مكتف بقشور اثمار الغاب اذا فاتهُ اللباب ، انت حولك جدران المنازل وستائر القاعات وكلل الاسرّة تقيك قيظ الصيف وقرّ الشتاء ، وهو لا فراش لهُ غير الغبراء ولا غطاء غير السماء ، ومع ذلك فايكما اسعد احوالاً ، انت ايها الرجل المتمدن ام اخوك الرجل الطبيعي ، انتِ ايتها المرأة المتمدنة ام اختك المرأة الطبيعية .

وُجدنا هنا بازاء مسألة من اهم المسائل الفلسفية والاجتماعية وهي — هل كان في تمدن الانسان زيادة راحته او زيادة تعبه ؟ فقد اصبح معلوماً ان البشر في اوائل العمران كانوا منتشرين افراداً وازواجاً على ضفات الانهار وفي الغابات والجبال يعيشون عيشاً طبيعياً اي في الحالة التي يراها القراء في الرسم المذكور آنفاً ، ثم ان حاجاتهم الطبيعية والطوارئ الخارجية اضطرتهم الى الاجتماع والتعاون على المعيشة فتألفت العائلة ومنها تألفت القبيلة ثم الامة ثم الدولة وبذلك تم عمران الارض بعد ان كانت خراباً واصبحت مأهولة بعد ان كانت قفراً يباباً . فهل ان البشر الآن بعد هذا العمران انعم بالاً مما كانوا قبله ؟ وهل ن آيات التمدن الساطعة ومكتشفاته الباهرة اصلحت اخلاقهم ام افسدتها ؟ وهل لم يكن شيء الامكان احسن مما كان ؟

مسائل نجيب عليها بما أمكن من الايجاز مراعاة لضيق المقام .

من مبادئ الاجتماع ان متاعب الانسان تزيد بزيادة حاجاته ولما كانت حاجاته تزيد بزيادة تقدمه في المدنية كان لا بد من زيادة متاعبه . فهذا الانسان الطبيعي لا يزرع

ولا يحرث ولا يهتم للغد اذا جاع مدّ يدهُ الى الاشجار او الحيوانات التي تصل اليها يدهُ فأخذ منها وأكل واذا نعس وضع فأسه من يدهِ ونام حيث كان سواء في عرض البر او في قمم الجبال او في بطون الاحراش . فكل متاعبه مقصورة اذاً على وقاية نفسه من شر الحيوانات الكاسرة وعلى تحصيل قليل من الاثمار او شيء من لحم الحيوان يمسك بهِ رمقهُ . اما الانسان المتمدن فاحص بتعاعدد المتاعب التي عليه معالجتها. عليه اولاً منازعة رفاقه البقاء وتحصيل معيشته تحصيلاً جعله التمدن من اصعب الامور في هذا الزمان . ثم انهُ ما عدا محاربة ابناء جنسه لتحصيل قوته عليه محاربة العناصر الطبيعية والقضاء شرها واجتلاب خيرها . فانه يخاف الرومانزم على جسمه من اخف نسمات الهواء . ويخشى وقوع اشعة الشمس على رأسه لئلاً تضربهُ ضربة قاضية . ويخاف الغرق على مزروعاته اذا كثر المطر ويخاف عليها الحرق اذا انحبس عنها . عليه مداراة الناس في السوق وعائلته في البيت واصدقائه كل في نوبته والسهر على نفسهِ وعلى اشغاله وعلى ذويه بازاء باقي الناس سهراً يفني جميع قواهُ وجميع اوقاته فلا يجن الليل ويأتي في فراشه حتى يتطرح عليه خائر القوى فاقد العزم من اتعاب نهاره . هذا بيان معيشته اليومية نزاع وصراع وهمٌ في خارج المنزل وغمٌ في داخله . وفضلاً عن ذلك فراحة الانسان اشد ما تكون متوقفة على صحته وسلامة جسمه . وسلامة الجسم آخذة في البعد عن الانسان بنسبة بعده عن فطرته . فان هذه الملاهي التي يهرقون فيها ماء حياتهم ولا يشعرون . والاطعمة والاشربة التي يقتلون بها اجسادهم . والملابس الضيقة التي يضغطون بها دماءهم . والرذائل الصغيرة كالحسد والبغض والطمع التي تذيب لحمانهم والكبيرة التي تقتل عقولهم وابدانهم وآدابهم — كل هذه القبائح التي ولدها التمدن الحاضر لا تبقي لجسم الانسان سلامة ولا تدع له صحة . واصابة الانسان بصحته اصابته بصميم راحته وسعادته من اجل ذلك فالانسان الطبيعي اكثر راحة من الانسان الاجتماعي

هذا من وجه الراحة البدنية والعقلية . اما من وجه فساد الاخلاق البشرية او صلاحها بالتمدن فالمجال متسع للبحث والتدقيق .

يرى كثيرون من الفلاسفة وعلماء الاخلاق ان التمدن كان باعثاً على افساد اخلاق الانسان لا على اصلاحها . وحجتهم في هذا ان التمدن يزيد حاجات الانسان كما قدمنا . وزيادة حاجات الانسان تقتضي تنبه حواسه وقواهُ الى فضائلها ونيل الضروري وغير الضروري منها . وهكذا نرى الغش والخداع والطمع والجرائم والرذائل تزداد في العالم بازدياد الثروة وتتقدم بتقدم المدنية . وقد سمى العلماء القرن التاسع عشر القرن الحديدي لكثرة اختراعاته واكتشافاته على انهم لو انصفوا لسموهُ القرن المادي لان المادة اصبحت فيهِ معبوداً ثانياً وربّاً ثانياً . لقد اصبح الانسان في هذا الزمان يتخذ من جثث اخوانه مراقي الى اغراضه ومصالحه . لقد قسمت المكاسب المادية اعضاء العائلة على بعضهم البعض فصار الواحد يمزق الثاني تمزيقاً

المرأة المتمدنة في القرن التاسع عشر — هيها القربن والتجلي انظر اليها راجعة من حانوت الصانع تتأمل في حلية ابتاعتها منه . لا ريب انه يحاول القارئ ان يقابل من كل الوجوه بينها وبين اختها المرأة الطبيعية في الرسم الاول .

ويدوسه تحت اقدامه دوساً توصلاً الى ريح يرجوه من وراء عمله غير ذاكر ان لهذه السكرة صحوة ولهذا الظلام فجراً وان وراء المادة قوة فوق المادة . وكل ذلك من نتائج المدنية والعمران . فما أحسن تلك البساطة الطبيعية بل ما احسن تلك الخشونة الفطرية التي نراها في الانسان الفطري في هذا الرسم بازاء ما في العالم المتمدن الآن من الفوضى الادبية

وهل كان في الامكان ابدع مما كان ؟ مسألة تحار فيها بعض الاذهان . فاذا قال الانسان ان ذلك كان في الامكان اعتُد قوله هذا كفراً لانه يستوجب ان يكون العالم قد خرج عن الدائرة الابدية العظمى التي رسمتها له اليد الابدية الازلية من غير ان تقوى هذه اليد على ادخاله فيها وحينئذ لا تكون هذه اليد (والعياذ بالله) الا يداً وهمية . واذا قال ان ذلك لم يكن في الامكان عزا النقص الى الكمال والضعف الى القوة والحد الى من لاحد ولا بداية ولا نهاية له تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

والحقيقة في كل هذا ان الخالق سبحانه وتعالى قد وضع لهذا الكون سننا وشرائع يسير بموجبها نحو الكمال المطلق والخير الاعظم . وقد كان شروع الانسان بالتعاون والاجتماع بداية التدرج والسير طبقاً لتلك الشرائع الالهية . امس كان الانسان بأُلوطة صغيرة ملقاة في الارض الواسعة فاصبح اليوم شجرة عظيمة تأوي اليها الاطيار ويستظل بها ابناء السبيل . واذا كانت الافاعي قد اتخذت لها مقاماً في هذه الشجرة والسوس والحشرات المؤذية قد علقت بها تنخر لبها وتاكل اوراقها فسياتي يوم تخلص فيه هذه الشجرة من جميع آفاتها وتعطي ثمراً يليق بالبستاني الذي سهر عليها .

وهذه الشجرة هي الانسانية والبستاني هو اليد المبدعة التي تدير سكانها الآن . وما هذه الآفات التي تاكل باطن العالم اليوم كالرذائل والجرائم والشقاء العظيم — ما هذه كلها الا اعراض تنفضها الانسانية عنها شيئاً فشيئاً كلما تقدمت من فجر النور وحد الكمال الموضوع امامها في الافق البعيد . فثبتي خطاك يا امّنا وامشي الى غرضك ساكنة الجأش ولا تخافي فان يد القادر تعضدك وتعينه القوية تأخذ بيمينك

ولكن انظري وراءك من حين الى حين واذكري هذه البذرة الصغيرة التي منها خرجت فانه قد يكون في ذكرك لها فائدة لنا ولك . واجتهدي ان تقتدي بها من حيث بساطة المعيشة وسذاجة القلب ما استطعت الى ذلك سبيلا فانك قد تكتفين بذلك كثيرا من مصائبك وشرورك

الرجل المتمدن في معمله في القرن التاسع عشر عصر الصناعة والاختراع . كم من المراحل قد قطع الانسان متدرجاً من الحالة الفطرية حتى وصل الى حالة العمران الحاضر

ولكن هل ارتقت آدابه بنسبة ارتقائه . وهل ان رأس هذا الرجل المتمدن المكشوف امامنا الآن لا يحمل من الشر اكثر مما يحمله رأس الانسان الفطري في الرسم الاول .